قضايا

بعد الحرب الروسية على أوكرانيا ثمّة خوف كبير من تمدّد الحرب إلى دول الجوار، ومنها مولدافيا المحاذية لأوكرانيا. ما هي خيارات مولدافيا لمواجهة روسيا؟ وما موقفها مما يجرى في أوكرانيا اليوم؟ هنا الجزء الأول من قراءة موسّعة للصراع الدائر الآن واحتمالاته وجذوره التاريخية

الشّطرنج المرن لدى بوتين
أوكرانيا ومولدافيا والتاريخ [1/2]

محمد الشرقاوي

عائلة أوكرانية من أوديسا بعد عبور الحدود من بالانكا جنوبي مولدافيا في 12 مارس 2022 (Getty)

أضفت أحداث مولدافيا تعقيدات جديدة على استراتيجية الكرملين، والغاية من الحرب الرّوسية على أوكرانيا، التي دخلت شهرها الثالث من دون مؤشرات عملية لوساطة دبلوماسية لتسويتها. وتتوالى دعوات الأمين العام للأمم المتحدة، أنطونيو غوتيريس، إلى وقف إطلاق النار قبل اجتماعه مع الرئيس بوتين في الكرملين وبعده. وقد توافقت الولايات المتحدة وأربعون دولة حليفة، في اجتماع استضافته القاعدة الجوية الأميركية في رامشتاين في ألمانيا في أواخر الشهر الماضي (إبريل/ نيسان)، على تعزيز القدرات القتالية للقوات الأوكرانية، وعقد اجتماعات شهرية لمجموعة الاتصال. في المقابل، توعّد الرئيس بوتين بالرد «الصاعق» على من يتدخّل في أوكرانيا. وتحاول روسيا فتح جبهة جديدة ضد أوكرانيا من مولدافيا، وهي دولة سوفييتية سابقة، لا يتجاوز عدد جنودها 3250 رجلاً، بالنظر إلى «مؤشرات» إلى هجوم في المستقبل القريب عليها.

تفيد المصادر العسكرية في أوكرانيا بأن الاستيلاء على مولدافيا سيؤدّي إلى انتقال القوات الروسية إلى ميناء أوديسا على البحر الأسود في أوكرانيا من الغرب، فأضحت الحرب الأوكرانية والمجابهة بين الكرملين والعواصم الغربية صراعاً ممتدّاً تُعرف بدايته، ويصعب توقّع نهايته أو مدى تحوّره في الأشهر المقبلة، بل يثير أسئلةً مهمةً بشأن دلالة الغزو الرُّوسي أوكرانيا في سيرورة السياسة الدولية ضمن تنافس الأقطاب الكبرى؟ وهل ترقى هذه اللحظة في ربيع 2022 إلى مصافّ اللّحظات المفصلية في التّاريخ، بموازاة انهيار جدار برلين مثلاً، أو الحربين العالميتين الأولى والثانية؟ وهل مفهوم «عودة الحرب الباردة»، إنْ كانت قد غابت أم لا حقيقة في الأعوام الثلاثين الماضية ومجاراة عبارات مألوفة منذ منتصف القرن الماضي هو أفضلُ ما يمكن أن ينتجه العقل الاستراتيجي الرّاهن؟

وقد ارتفع مستوى التوقعات في العواصم الغربية خلال شهر إبريل/ نيسان بشأن احتمال مفاجآت جديدة، ومدى توظيف الرئيس بوتين الاحتفال السنوي المقرّر ليوم النّصر (9 مايو/ أيار) في الذكرى السابعة والسبعين لانتصار الاتحاد السوفييتي على ألمانيا النازية في الحرب العالمية الثانية. وحاول الكرملين أن يضفي على المناسبة رمزية قومية وخطابية تاريخية، بتنظيم مسيرات في 28 مدينة روسية شارك فيها 65000 شخص و2400 قطعة من المعدّات العسكرية وأكثر من 400 طائرة. وشدّد بوتين، في خطابه الحماسي خلال الاستعراض العسكري في السّاحة الحمراء في موسكو، على أن التدخّل الرّوسي في أوكرانيا كان ضرورياً، لأن الغرب «كان يستعدّ لغزو أراضينا، بما فيها شبه جزيرة القرم».

وقد شدّد بوتين على أن روسيا كانت دائماً تدعو إلى حوار نزيه، وإلى أمنٍ متساوٍ وغير قابل للتجزئة للجميع، لكن عَبثاً، فإنّ «دول حلف شمال الأطلسي لم ترغب في سماعنا»، إذ لديهم «خطط مختلفة تماماً»، وكانت هناك استعداداتٌ لشنّ هجوم على دونباس وشبه جزيرة القرم. وأضاف أنّ الدفاع عن الوطن الأم عندما يجرى تقرير مصيره «كان دائماً أمراً مقدّساً. واليوم، أنتم تقاتلون من أجل شعبنا في دونباس، من أجل أمن روسيا وطننا». ومن بين ردود الفعل الأولية على خطاب الرئيس بوتين تصريح وزير الدفاع البريطاني، بن والاس، أن بوتين أطلق «مزاعم خيالية» لتبرير الغزو، واتهمه وجنرالاته بارتكاب «جرائم حرب». وقال ميخايلو بودوليك كبير مستشاري الرئيس الأوكراني إن «دول حلف شمال الأطلسي لن تهاجم روسيا. وأوكرانيا لم تخطط لمهاجمة القرم».

مولدافيا... نسجٌ على منوال أوكرانيا؟

لم يأت خطاب الرئيس بوتين في الاستعراض العسكري بجديد ملموس على مستوى استراتيجيته إزاء دول الحلف، لكن الأحداث أخيراً في مولدافيا، فضلاً عن أوكرانيا، تزيد في تعقيد هذه اللحظة في ربيع 2022 التي ترقى إلى مصافّ اللّحظات المفصلية في التّاريخ، بموازاة انهيار جدار برلين، أو الحربين العالميتين، الأولى والثانية. وتتزايد المخاوف من تحرّكات الكرملين في الدول المجاورة لأوكرانيا، ومنها مولدافيا ورومانيا وبولندا، وحتى فنلندا والسويد اللتين تنظران في مدى الحاجة لطلب عضويتهما في حلف شمال الأطلسي. وثمّة تحوّل ملموس في القراءات الغربية التي غدت، بين شهريْ فبراير/ شباط ومايو/ أيار، تتبنّى تفسيرات أكثر واقعية لاستراتيجية الكرملين، بعد أن وضع المعدّات النووية في حالة تأهب.

تكتب المحللة في «وول ستريت جورنال» بيجي نونان، في افتتاحية بعنوان «قد يكسر بوتين حقاً التابو النووي»، نشرتها قبل أيام «لسنا قلقين بما يكفي بشأن الاستخدام النووي الروسي جزئياً لأننا نتخيل شيئاً مثل صواريخ ضخمة برؤوس حربية ضخمة، تُطلق من قارّة أخرى، وتتسارع عبر الفضاء. نعتقد أن هذا لن يحدُث، ولم يحدث أبداً! لكن الاحتمال الأكثر ترجيحاً أنه لن يجرى استخدام الأسلحة النووية الاستراتيجية الكبيرة، ولكن الأسلحة التكتيكية الأصغر في ساحة المعركة». هكذا تزداد أهمية الإجراءات الروسية في مولدافيا التي تُحادي أوكرانيا، وأضحت في وضع حرج بما يحدث في إقليم ترانسنيستريا الذي يمثل برميل بارود محتملاً في منطقة الشرق، حيث يسيطر الانفصاليون الموالون للكرملين بمساعدة حوالي 1500 جندي روسي. وظلت المنطقة المتنازع عليها من دون تغيير تقريباً منذ انهيار الاتحاد السوفييتي، واستمرار تبنّيها شعار «المطرقة والمنجل»، وإنْ اتّبع الكرملين تحت قيادة بوتين سياسة ليبرالية أفضت إلى تعزيز نفوذ الأوليغارشيين وانتعاش القومية الروسية. وتقول موسكو إن قواتها ما زالت تحافظ على السلام في الشريط الضيق على طول نهر دنيستر. لكن المسؤولين في العاصمة كيشيناو يتهمونها باحتلال المنطقة بشكل غير قانوني. ويطالب المجتمع الدولي بمغادرة القوات الروسية أراضي مولدافيا، ولكن، لم يتزحزح أحد من الطرفين عن موقفه.

يقول سفير مولدافيا في الولايات المتحدة سابقاً ورئيس معهد التنمية والمبادرات الاجتماعية في كيشيناو، إيغور مونتينو، إنّ «ما بدأ بمثابة مصدر قلق يتحوّل بسرعة إلى حالة ذعر». ويضيف أنه يقرأ في تصريحات الروس أن «مولدافيا مستهدفة، وقد تكون هناك خطط للغزو من ترانسنيستريا. وتتسع حالة الانقسام بين المجتمع المولدافي بشأن ما ينبغي فعله بعد تنبيه أوكرانيا لنا بأننا المستهدفون في المرحلة المقبلة، بينما يُصرّ قادتنا على أنه من الأفضل استرضاء موسكو بالبقاء خارج دائرة الحرب». وقد قاومت حكومة مولدافيا الدعوات إلى الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي والحلفاء الغربيين لفرض عقوبات على روسيا وشحن أسلحة إلى أوكرانيا، وتتمسّك بالتزامها الدستوري بالحياد.

> تتزايد المخاوف من تحرّكات الكرملين في الدول المجاورة لأوكرانيا، ومنها مولدافيا ورومانيا وبولندا، وحتى فنلندا والسويد
>
> قاومت حكومة مولدافيا الدعوات إلى الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي والحلفاء الغربيين لفرض عقوبات على روسيا وشحن أسلحة إلى أوكرانيا، وتتمسّك بالتزامها الدستوري بالحياد

وأظهر استطلاع للرأي أجراه مركز أبحاث CBS-AXA في إبريل/ نيسان الماضي أن 46% من سكان مولدافيا يعتبرون الغزو الروسي «هجوماً غير مبرّر»، فيما يؤيد 18% منهم حجة الكرملين بأنه «تحرير البلاد من النازية». ويحمل أكثر من مليون مولدافي، من أصل مجموع السكان البالغ عددهم 2.6 مليون نسمة، جوزات سفر الاتحاد الأوروبي.

معضلة الحرب غير المتوازية

تميل جل التفسيرات المتداولة للحرب الرّوسية على أوكرانيا وتبعاتها في مولدافيا إلى تبني تركة الحرب الباردة في استيعاب تعقيدات الحرب وأحداثها اليومية ومآلها في المستقبل. لكن، ينبغي ألّا يغرق المرء في التفاصيل اليومية بقدر ما يتمسّك بالمرامي أو الغايات التي يستهدفها الكرملين من خلال المغامرة في أوكرانيا، بل والقيام بعمليةٍ ذهنيةٍ في التحليل والاستشراف تقوم على ثلاث خطوات متوالية: السياق والديناميات والمآل. أي استحضار أحداثِ الماضي وتاريخ الصراع وأسبابه الجذرية، ثم الديناميات والتفاعلات الاستراتيجية والمناورات التي يقوم بها كل طرفٍ من الكرملين، إلى حكومة زيلينسكي في كييف، إلى مقر حلف شمال الأطلسي، ومناقشات الاتحاد الأوروبي في بروكسيل، إلى البيت الأبيض، ومجلس الأمن والجمعية العامة في نيويورك.

في 17 من ديسمبر/ كانون الأول 2021، أعلنت حكومة فلاديمير بوتين قائمة مطالب سمتها «الضمانات الأمنية»، ووجّهت اتهامات إلى الغرب بأنه قد «وسّع بقوة» الحلف رغم ما يعتبرها تأكيداتٍ تعود إلى عام 1990 بأنه لن يفعل ذلك. ونشر الكرملين أكثر من مائة كتيبة تكتيكية وقوة عسكرية بنحو 190 ألف جندي بمثابة تمرين مثير يجمع بين شفافية الاستعراض وخداع المناورة على حدود أوكرانيا.

في 28 من فبراير/ شباط الماضي، جرى تسريب وثيقة تشمل خطة بوتين نشرتها وكالة ريا نوفوستي RIA Novosti مصادفة، وتقضي بالسّيطرة على كييف في غضون يومين فقط، ثم إعلان بدء نظام عالمي جديد في 26 فبراير/ شباط. وكان من المفترض أن يؤدّي الاستيلاء السّريع على أوكرانيا إلى وضع الغرب أمام الأمر الواقع، مثل ما حدث في بيلاروسيا وكازاخستان وجزيرة القرم، وبالتالي فرض سياسة خارجية روسية جديدة أكثر قوةً عما سبق. ويكون بوتين بذلك قد أنهى الهيمنة الغربية العالمية وألغى شروطها. هذا بعضُ ما كان يدور في العقل الاستراتيجي لبوتين خلال الاستعداد لغزو أوكرانيا.

موقف بوتين

عشية الغزو الروسي لأوكرانيا في 24 من فبراير/ شباط الماضي، ألقى الرئيس بوتين خطاباً يمكن اعتباره أحد أهمّ خطابين ألقاهما في حياته السياسية، إلى جانب خطابه المثير في مؤتمر ميونخ للأمن عام 2007، فشدّد على أن «المعاهدات والاتفاقيات السابقة لم تعد سارية المفعول. ولم تساعد محاولات الإقناع وتكرار تقديم الطلبات. وكل ما لا يناسب الأطراف التي تسعى إلى الهيمنة يُعلن أنه عفا عليه الزمن ولم يعد ضرورياً. والعكس صحيح: يتم تقديم كل ما يبدو مفيداً لهم على أنّه الحقيقة المطلقة». وأضاف بوتين عما يمثّل محور مناورته إزاء الغرب: «ما أتحدّث عنه الآن لا يتعلق بروسيا فحسب، بل ينطبق على نظام العلاقات الدولية بالكامل، وأحياناً على حلفاء الولايات المتحدّة أنفسهم. فبعد انهيار الاتحاد السوفييتي، بدأت إعادة تقسيم العالم بالفعل، وتم اعتماد قواعد القانون الدولي التي تطورت بحلول ذلك والقواعد الأساسية عند نهاية الحرب العالمية الثانية بدأت تتداخل مع سياسات أولئك الذين أعلنوا أنفسهم منتصرين في الحرب الباردة».

تنمّ هذه العبارة في خطاب بوتين عن محاولة تصحيح التّاريخ وترميم ما يعتبره خَلَلاً ينال من استقرار العلاقات الدولية، وهي تعيد صدى ما دار بينه وماكرون على بعد ستة أمتار من بعضهما بعض في الكرملين يوم العاشر من فبراير/ شباط. وقال اثنان من مرافقي ماكرون إن بوتين قدم له محاضرة في «مراجعة التاريخ» خمس ساعات، وأن الغرب لم يف بالتزاماته تجاه روسيا منذ 1997، بل وسّع الحلف ليشمل دول الكتلة السوفييتية السابقة. لم تَضعف عزيمةُ بوتين أيضاً في عقد محاكمة أخلاقية وقانونية للغرب، فلوّح بما يعتبره «انطباعاً سائداً في العديد من مناطق العالم، حيث يأتي الغرب ليقيم نظاماً خاصاً به، تكون النتيجة جروحاً دموية غير ملتئمة، وتقرّحات للإرهاب الدولي والتطرف. كلُّ ما قلتُه فظيع، لكنه ليس بأي حال من الأحوال الأمثلة الوحيدة على تجاهل القانون الدولي. في هذه السلسلة، هناك وعودٌ قدّموها إلى بلدنا بعدم توسيع الحلف ولو شبراً واحداً إلى الشرق. أكرّر - لقد خدعونا. غالباً ما يسمع المرء أن السياسة عمل قذر. ربما، ولكن ليس بهذا القدر. ولا يتعارض سلوك الغش هذا مع مبادئ العلاقات الدولية فحسب، بل يتعارض قبل كل شيء مع معايير الأخلاق المعترف بها عموماً».

عمد بوتين أيضا إلى إدراج توليفة ذكية بنَفَس ميكيافيلي، من أجل تبرير استخدام القوة وتكريس السياسة وتحدّي الغرب، وحاول أن يجمع المجد من طرفيْه، بتغليف نزعته لاستخدام القوة وبقية منطلقات الواقعية السياسية بوشاء ناعم من قيم مناهضة الكذب السياسي والعدل وبقية المبنيات السياسية political constructs في مدرسة الفكر المثالي. فقال: «هناك حاجة دائماً للقوة، ولكن يمكن أن تكون القوة ذات جودة مختلفة.

إن سياسة «إمبراطورية الأكاذيب»، التي تحدّثتُ عنها في بداية حديثي، تقوم أساساً على القوّة الغاشمة والمباشرة. وفي مثل هذه الحالات، نقول: «هناك قوة، لا حاجة للعقل». أنا وأنت نعلم أن القوة الحقيقية تكمن في العدل والحقيقة اللذين هما إلى جانبنا. وإذا كان الأمر كذلك، فمن الصعب الاختلاف مع حقيقة أن القوة والاستعداد للقتال هو الأساس الذي يقوم عليه الاستقلال والسيادة، وهما الأساس الضروري الذي يمكنك من خلاله بناء مستقبلك بشكل موثوق، وبناء منزلك وعائلتك ووطنك».

وختم خطابه بعبارةٍ تنطوي على توظيف القومية والهوية الجماعية، قائلاً «أنا أؤمن بدعمكم، بهذه القوة التي لا تقهر التي يمنحنا إياها حبنا للوطن».

(أستاذ جامعي مغربي في الولايات المتحدة)

السياق والديناميات والمآل

ينبغي ألا يغرق المرء في التفاصيل اليومية بقدر ما يتمسّك بالمرامي أو الغايات التي يستهدفها الكرملين من خلال حربه في أوكرانيا، بل والقيام بعملية ذهنية تقوم على ثلاث خطوات متوالية: السياق والديناميات والمآل. أي استحضار أحداث الماضي وتاريخ الصراع وأسبابه الجذرية، ثم الديناميات والتفاعلات الاستراتيجية والمناورات التي يقوم بها كل طرف من الكرملين، إلى حكومة زيلينسكي في كييف، إلى مقر حلف شمال الأطلسي، ومناقشات الاتحاد الأوروبي في بروكسل، إلى البيت الأبيض، ومجلس الأمن والجمعية العامة في نيويورك.

النص الكامل
على الموقع الالكتروني